من الأدب الفرنسي

إغراء الشيطان لآدم وحواء

بقلم الأديب محمود المرصفي

المنظر الأول : (الشيطان وحواء)

الشيطان — حواء ... ! ها أنذا قد أتيت إليك ساعياً للقائك !

حواء — لماذا ... ؟ ماذا تريد مني أيها الشيطان المريد ... ؟ ما وراءك خبرني ... ؟

الشيطان — إني أبحث بحث المعنى عن سعادتك التي تنشدينها ، ومعرفك الأثيل الذي تحافظين عليه ... !

حواء — ليمنحنا إياها الله عز وجل ... !

الشيطان — لا تخافي ... لا ترتعدي ... ! لقد عرفت منذ زمن مديد أسرار السعادة الخالدة في هذه الجنة ... ! سأخبرك كيف تحصلين عليها .

حواء — ابدأ حديثك إذاً واقصص عليّ ما تريد وها أنا ذي أصغي إليك

الشيطان — أحقاً ستصغين إليّ ... ؟

حواء — أجل ... ؟ وسأكون لك مطيعة رقيقة !

الشيطان — وهل تحافظين على السر الذي سأفضي به إليك ؟

حواء — أجل ... وإيماني بربي ... !

الشيطان — ألا تفشينه ... ؟

حواء — لست أنا التي أفشيه ... !

الشيطان — إذا أنا وثقت بك ... سآخذك بكلمتك وسأفضي لك بهذا السر ... ! أنا لا أريد منك أي ضمان آخر

حواء — يمكنك أن تثق بكلامي ... !

الشيطان — أنت في صحبة رجل كريم النفس ولكني أراه ليس جديراً بعطفك وحنانك ... ! لقد رأيته وعرفته فظاً غليظ القلب ... أخشى لا يفقه شيئاً

حواء — هو ليس بالقدر الذي تصفه به ولكنه مع ذلك خشن بعض الخشونة .

الشيطان — سيرق مع الأيام ويروض نفسه ما دمت بجانبه على الرقة ولين الجانب ... !

ولكنه الآن أصلب من الحديد ... ! أليس كذلك ... ؟

حواء — إني لأعرفه نبيلاً يحمل نفساً عزيزة كريمة ، وإنه لعلى خلق عظيم ... !

الشيطان — أولى لك أن تصفيه بأنه رجل وحشي لا هم له إلا مطاردة الحيوان ليفترسه ... ! هو كالحيوان فكرة ومعنى ، لا يعنى بنفسه ، بل لا يريد أن يعنى بها .

لندعه وشأنه فهو حر في نفسه ، ولكن ألا ترين معي أنه على الأقل ينبغي له أن يعنى بشريكته الوحيدة ورفيقته الأليفة

أنت كائن رقيق ضعيف لا حول له ولا قوة

أنت يا من هى أندى من الزهر وأنصع من البلور والثاج المتساقط على الجليد الرائق النقى — لقد خلق الخالق منكما زوجين غير منسجمين ، متنافرين غير متوافقين ... !

واعجبا .. ! أنت رقيقة الحاشية ، حلوة المعشر ، وهو جاف غليظ القلب صلف بغيض لروح جميل كروحك . وعلى الرغم من ذلك أراك صابرة غافلة رزينة متزنة فى غير ملل ولا ضجر . كل أفكارك وآرائك تصدر عن روية وعقل . . ! فكلامك مفعم بالمعانى والعبر ، وقلبك يفيض بالعطف والحنان ... خبرينى هل ترينه بعد ذلك يعطف عليك ويعطيك حقك من العناية والرعاية .. ؟

وأخيراً ... ! أريد أن أقول لك شيئاً

حواء — لألفاظك رنين عذب وجرس شجى ! أنصت إلى بسرك فأنا حفيظة عليه فى قلبى ...!

الشيطان — أحذرك... فهذا السر شىء مقدس ليكون بيننا نحن الاثنين أناشدك الله ألاَّ تفضى به لأى مخلوق ...!

حواء — من هذا الذى يستطيع أن يعرفه منى؟

الشيطان — حتى ولو كان آدم نفسه ؟

حواء — أجل ...!

الشيطان — إذاً آن لى أن أتكلم ... أصغى إلىّ ... أنا لا أرى إنساً فى هذا المكان غيرنا ... وآدم هناك بعيد عنا لا يستطيع أن يسمع الحديث الذى يدور بيننا

حواء — تكلم ... ! تكلم بصوت عال ، إنه سوف لا يعرف كلمة ما ... !

الشيطان — أحذرك من مكيدة خطيرة وخديعة كبيرة دبرت فى الخفاء فى هذا الفردوس الخالد

وذلك أن الثمرة التى منحك إياها الله ليست أحلى من تلك التى طالما حذرك منها . أراه لا يريد أن يمتعك بها إذ تحمل صفات جليلة وفضائل جمة لاقبل لك بها ... ! هو يستكثرها عليك ...!

فيها ينبوع الحياة والقوة والسلطان والعلم والمعرفة بكل شىء ... ! هى الأمل والنهاية وفيها الخير والشر ... وبالجملة تجمع فى نفسها كل شىء فى الوجود ...!

حواء — تُرَى ما طعمها وكيف يكون ذوقها؟

الشيطان — منحت طعماً من السماء وذوقاً إلهيا دونه كل ذوق أو طعم ... !

هى لجسمك الغض الجميل ولحياك الوضاح الوسيم أضمن غذاء وأشهى طعام ... ! ستصبحين بعدها ملكة الدنيا بأسرها والسماء وعرشها وجهنم وسعيرها ...! ستعرفين كل ما هو موجود وكل ما ينبغى أن يوجد ... ! وبالجملة ستكونين مليكة مسيطرة على العالم بأسره ... !

حواء — أتجمع الثمرة كل هذه الصفات ؟ واعجبا ...!

الشيطان — أجل ... ! هى كذلك ...!

(تمسك حواء الثمرة المحرمة وتنعم النظر فيها وبعد ما تتأملها هنيهة تقول) :

لا شىء يستهوى بصرى غير منظرها الجذاب الجميل ...!

الشيطان — ماذا يحدث إذا أكلت منها ؟

لا شىء ... حاولى ... سوف تكونين أرشق قداً وأهيف قامة ... ! إذا تذوقت هذه الثمرة العجيبة

ستشهرين آدم بمنظرك اللائكي .. سيعبدك بعد ذلك ولا يستطيع لك فراقاً ... !

حواء ، بنظرة مترددة ، — لست أدرى ماذا أعمل

الشيطان — هلا تريدين أن تثقى بى ؟ ... ألا تعتقدين فى كلامى ... ؟ خذى أنت الثمرة أولاً ثم أعط آدم إياها وانظرا ماذا يحدث بعد ذلك ... ستكونان ملكا السماء والأرض . ستستوليان فوراً على عرش الفردوس ، ستكونان كالخالق العظيم صفة وشبهاً . وإذ ذاك لا يستطيع أن يرفض لكما أمراً ولا يخفى عنكما سراً !

فى اللحظة التى تأكلان من الثمرة حيث شئتما ستتحول روحكما من حال مادية فانية إلى حال روحانية خالدة ، إذ تشاركان الله فى ملكه وتبوآن مكانكما من عرشه

سوف تصبحان فى قوة وعزة أندادا لله فى الخير والحق والجمال ...

هيا كلا منهما ما شئتما ... هيا إلى الخير ... هيا إلى المجد .. إلى الخلود .. إلى الفخار والعظمة .. حاولا ولا تخافا ... أجمعا الرأى ولا تترددا

فالتردد ليس خليقاً بكما وقد اصطفاكما الله !

وهنا ابتعد الشيطان عن حواء ونزل إلى الجحيم وجاء آدم إلى حواء حزيناً مكتئباً لحديثها مع الشيطان الشرير وقال لها فى حدة :

خبرينى أيتها المرأة ماذا طلب منك هذا الشيطان البغيض وماذا يريد منك ؟

حواء — كان حديثنا يدور حول مجدنا وعظمتنا وكيف نضمن خلودنا بهما !

آدم - لا تثقى فى الخائن ولا تعتقدى فى المجرم إنك ما زلت ساذجة على سجيتك نقاء الطوية وصفاء النفس وطهارة القلب ... !

ثقى بى أنا وحدى فأنا من معدنك وأنت منى وكلانا صنو الآخر ... هيا نمرح فى جنتنا التى اختارها الله لإقامتنا ... ! لا تفسدى علينا هذه السعادة التى منحنا إياها الله !

أرى وراءك ظهرياً كلام هذا الماكر الكاذب الشديد التلفيق ... ! لا تستهوك ألفاظه العذبة الرنانة المفخمة ولا وعوده الممسولة الخادعة !

هو لا يملك شيئاً حتى بعد هذه الوعود ، هو منبوذ قد لعنه الله إلى يوم الدين !

أنصحك أيتها الرفيقة الجميلة ألا تطمعى فى شىء أكثر مما نحن فيه ... نحن فى جنان الفردوس الخالدة حيث لا ظمأ ولا جوع ولا برد ولا صرور ولكن ظلال الله والملائكة الأبرار فى عليين .. فنحن فى حمى الله الرحيم المتعال

أتوسل إليك ألا تصغى لهذا الشرير ... ! لأنه رمز الألم والندم ... أنا أعرف به منك ولى خبرة بأفعاله وخصاله ... !

حواء — كيف تعرفه هذا القدر من المعرفة ؟

آدم — ذلك لأنى بكلوته وخبرته عن كثب

حواء — ماذا يهمنى من ذلك ... ! أنت إذا نظرته فإنى زعيمة بأنك ستغير رأيك فيه لأن هيئته تحملك على ذلك ... !

آدم - كلا ... ذلك لن يحصل — لأنى لا ثقة لى به ولا أعتقد بكلامه بعد الذى رأيت من خداعه

وخيانته وكذبه وتلفيقه ... !

لا تدعيه أن يأتي إليك أو يقرب منك

إنه على خلق خبيث ونفس شريرة ماكرة ... !

وقديماً أراد أن يخون سيده فكفر بنعمته وأنكر صنيعته بأن سلب عرشه متجاوزاً كل حد من الكفر والنكران

أنا لا أريد هذا الخبيث أن يسل إلى قلبك الطاهر أو ينفذ إلى نفسك الصافية المذية ... !

(في هذه اللحظة يصعد ثعبان برقش وهو واقف على جذع الشجرة المحرمة. حواء تقترب منه وكأنما ترهف أذنيها كأنها تريد أن تصغي إلى نصحه ... ! ولكنه يقدم لها تفاحة جيلة جذابة النظر فتأخذها وتقدمها بدورها إلى آدم الذي يصر على رفضها بإباء وشمم)

فتقول له حواء :

كلْ يا آدم ولا تخف ... إنك ما زلت تجهل طعمها ... ! هيا لنأخذ هذا الخير الذي قدم لنا ليكون طوع بناننا ... !

آدم — وهل مَذاقها حُلْوٌ إلى هذا القَدْر حتى تسهوينا وتغرينا ... ؟!

حواء — ستعرف حلاوة طعمها حين تأكلها وما دمت تحجم عن تذوقها فلا تستطيع أن تعرفها. فحاول ولا تخش شيئاً

إني لم أعهدك جباناً هكذا ... !

آدم — بل أشعر بإحساس غريب وشعور غامض ! أتوجس خيفة أن يقع لنا شيء ... ! أقول لك الحق إن رعدة شديدة تستقلني وتجتاز جسمي وعقلي لا أعرف لها سبباً ولا أصلاً ... !

حواء — لا تخف. أنا لا أشعر بمثل ما تشعر به أنت . هيا إلى الخير فهو في متناول يدينا ...

هيا لا تتمهل ... !

آدم — كلا ان أفعل ما تدعوني إليه ... . أخشى شيئاً ... أخشى شيئاً

حواء — تخطئ خطأ كبيراً إذا أنت أصررت على هذا الرفض

آدم — أوه ، حسن ... ! سآخذها ... !

حواء — إذاً فكل منها ما شئت ... وإذ ذاك ستعرف الخير ... والشر ... ! هأنذا أتذوقها قبلك ... !

آدم — إذا فعلت فأنا سأقدم على أكلها بعدك

حواء — نعم ... ! سنأكلها ونقتسمها سوياً في أمن وسلام ... !

(وعندئذ أكلت حواء جزءاً من الثمرة المحرمة وذاك آدم.)

ها أنا ذي قد تذوقتها ... !

يا إلهي ما ألذ طعمها ... ! لم أتذوق بعد طعماً أشهى منها ... !

ما أجملك وأشهاك أيتها الفاكهة التي طالما حرمتنا إياك ... !

الآن قد عرفت لماذا منعت عنا وحذرنا منها ... !

آدم — ماذا تقولين ... ؟ خبريني ما طعمها أسرعي .. وخبريني ... !

حواء — لم يتذوق إنسان طعماً ألذ من ذلك. فالآن أنظر نظراً ثاقباً ... ! لقد أصبحت في صفوف الآلهة أدانيهم في العظمة ، وأساويهم في القوة والسلطان

ما أعجب هذه الثمرة ... إنها لساحرة ... !

لقد عرفت كل ما هو موجود ، وسأعرف كل ما سيوجد . عرفت سر العالم بأسره .

كل يا آدم وشاركني في أكلها ، أريدك سعيداً معي .. ! تذوق طعمها الجميل ولا تحرم نفسك .

أسعد نفسك بأكلها ، وأنعمها بجمالها الذي لا يضارع ... وطعمها الذي لا يقارن ...!

(فيأخذ آدم التفاحة على أثر هذا الاغراء ويقول لحواء)

إني لأرى نفسي تثق بك ثقة عمياء لأنك رفيقة حياتي ، وشريكتي في السراء والضراء ولا تقبل لي بالاستغناء عنك !

أيتها الزهرة الجميلة التي لن تذبل وهي بين أناملي !

ويا أيتها القادة الحسناء التي استهوت قلبي واستولت على نوازع نفسي وبهرت بصري بجمالها وخفة حركاتها

يا من لا تفارق ثغرك الصغير تلك الابتسامة العذبة السعيدة ...

يا من أسكن إليك بعد التعب والنصب وأنا سعيد قرير العين راضي النفس مطمئن البال .. لا أطمع في شيء إلا رضاك وحنانك ولا أتطلع إلا لصحبتك ورفقتك !

أيها المخلوق المطوف ... لأجدن نفسي لا تقدر على رد سؤلك أو رفض ما تريدينه مني ...

ولكن ... ما زلت لا أستطيع !

حواء — خذها من يدي وكلها ولا تخش سوءاً

(هنا يأكل آدم جزءاً من الثمرة ولم يكد ينتهي من أكلها حتى عرف خطيئته . فحاول أن يخفي نفسه حتى لا يراه أحد . وجرد من ثيابه الأنيقة الزركشة فصنع على نفسه من ورق الشجر ليستر جسده وعند ذلك أظهر ندمه وأسفه وأخذ في غير طائل قائلا :

وا أسفاه ... ! ما أشقى الآثم وأبأس المجرم ... ما الذي فعلته حتى غضب على الله هذا الغضب ، وقضى على هذا القضاء الذي لا مرد له ولكن أما قلت هذا لرفيقتي ..؟ أما قلت لها إن شيئاً سيحدث لنا ... ها نحن ذان قد حرمنا جنتنا والسعادة التي كنا نمرح فيها في غير فكر ولا ندم ... !

اللهم أنزل لعنتك وغضبك على هذا الأثيم فهو الذي راودنا وهو الذي أغرانا !

ألا لعنة الله على هذه الشجرة ! لك الله يا حواء !

هأنذا قد مت في غير رجعة ولا أوبة ... !

وهبطت في عالم لا أعرفه ... !

[يتبع]

محمد المرصفي
كلية الآداب — القسم الفرنسي

آلام فرتر
للشاعر الفيلسوف جوته الألماني
مترجمة بقلم
أحمد حسن الزيات
وهي قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد
تطلب من إدارة مجلة الرسالة
وثمنها ١٥ قرشا